الإغراق معضلة في الاقتصاد وأزمة في الدين



دكتور
إبراهيم محمد عبد الجليل

الإغراق: معضلة في الاقتصاد وأزمة في الدين

بقلم
دكتور إبراهيم محمد عبد الجليل



كثيرًا ما نسمع في نشرات الأخبار والمقالات الاقتصادية عن مصطلح "الإغراق"، باعتباره سلاحًا تستخدمه بعض الدول والشركات الكبرى لتدمير الصناعات المحلية في الدول الأضعف اقتصاديًا. لكن قليلًا من الناس يعرف أن "الإغراق" ليس حكرًا على الأسواق والتجارة، بل امتد إلى الساحة الدينية والفكرية، حتى أصبح من أسباب التشويش على فهم الناس للدين.

في هذا المقال نحاول أن نرصد هذا المفهوم في المجالين الاقتصادي والشرعي، ونوضح كيف يتحول من وفرة ظاهرية إلى خلل داخلي عميق.

الإغراق في الاقتصاد: حرب غير معلنة

الإغراق الاقتصادي ببساطة هو أن تقوم جهة أجنبية ببيع منتجاتها داخل بلدك بأسعار أقل من تكلفة إنتاجها، أو أقل بكثير من أسعار السوق المحلي. الهدف من ذلك ليس الربح الفوري، بل كسر ظهر الصناعات المحلية وإخراجها من المنافسة.

يظن المستهلك العادي أن الأسعار الرخيصة مكسب، لكنه في الحقيقة فخ طويل المدى: تنهار المصانع الوطنية، تُسرّح العمالة، وتصبح الدولة معتمدة على الخارج. وعندها تفرض الجهة المصدّرة السعر الذي تشاء، بعد أن قضت على كل بديل.

الدول الواعية تضع قوانين لحماية نفسها من هذا النوع من الهيمنة الاقتصادية، تحت مسمى قوانين "مكافحة الإغراق".

الإغراق في الدين: العلم حين يغرق الناس

لكن ما علاقة هذا بالمجال الديني؟

الحقيقة أن ساحة العلوم الشرعية لم تسلم من نوع آخر من الإغراق، يتمثل في الكم الهائل من الفتاوى، والكتب، والمجادلات، والتفريعات الدقيقة التي أغرقت الساحة وأبعدت كثيرًا من الناس عن جوهر الدين وبساطته.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله قولًا بليغًا في هذا الباب، يصف فيه حال بعض المشتغلين بالعلم، فيقول:
"ولولا التنافس لَمَا أُلِّفت كتب الجدل، ولا أكثر من الفروع، ولا سُوِّدت الصحائف بكلام لا يُغني، ولا يُسمن من جوع."

لقد رأى ابن القيم منذ قرون أن كثيرًا من الإنتاج العلمي في زمانه لم يكن بدافع خدمة الناس أو بيان الحق، بل دافعه التنافس وحب الظهور. وهو ما نشاهده اليوم أيضًا في أشكال متعددة: دروس دينية تغرق الناس في تفاصيل دقيقة لا يحتاجها إلا المتخصص، جدالات لا تنتهي بين الفرق والمذاهب، وأسئلة غريبة تُطرح لا علاقة لها بواقع الحياة.

والنتيجة؟
انفصال بين الدين وحياة الناس، وشعور عام بأن الدين معقد ومربك، بينما هو في أصله هداية ورحمة وتيسير.

عندما يصبح التنافس مرضًا
ما يجمع بين الإغراق الاقتصادي والإغراق الشرعي هو غياب الضابط الأخلاقي والإنساني.
في الاقتصاد: الجشع والهيمنة.
وفي الدين: التنافس وحب الريادة ولو على حساب البسطاء.

في الحالتين، الضحية واحدة: المواطن البسيط، والمُسلم العادي الذي يبحث عن لقمة عيش أو عن طريق هداية.

نحتاج أن نعيد التوازن إلى كلا المجالين:
أن نحمي صناعتنا من الطمع الخارجي، وأن نحمي ديننا من التنافس المفرط والجدل العقيم.
أن ندعم المنتج المحلي، وأن ندعم خطابًا دينيًا يفهم الناس ويخاطب عقولهم وظروفهم.

الحل: التوازن لا التنافس

الحل في كلا المجالين، الاقتصاد والدين، لا يكمن في المنع أو المصادرة، بل في تحقيق التوازن وضبط الأولويات. في الاقتصاد، يجب دعم المنتج المحلي وتشجيعه، مع فرض قيود عادلة على البضائع التي تهدد السوق من خلال الأسعار غير الواقعية. لابد من قوانين تحمي السوق الوطني من جشع الشركات الكبرى التي تدخل فقط لتسيطر ثم تنسحب تاركة الخراب خلفها.

وفي المجال الديني، نحتاج إلى تجديد الخطاب بطريقة تُعيد ربط الناس بجوهر الشريعة لا بتفريعاتها. البداية تكون بتعليم الأساسيات، وربط الأحكام بمقاصدها، والسؤال عن الحكمة من الصلاة أو الصيام أو أحكام المعاملات، بدل الانشغال بما لم يقع أو لن يقع.

ولا بد من إعادة التفرقة بين العلماء والدعاة، ولكل مجاله للأول دقيق العلم وشغل الثاني الموعظة وكفى ، وتذكيرهم بأن العلم ليس مضمار سباق، بل وسيلة لهداية الناس، وتخفيف معاناتهم، لا إثقال كاهلهم.

خنامًا: لا تُغرقونا

الإغراق يبدو في ظاهره وفرة، لكنه في حقيقته فوضى تقتل التوازن.

نحتاج إلى من يُبصّرنا لا من يُغرِقنا،

نحتاج إلى من يُبسّط العلم لا من يُعقّده،

وإلى من يرى أن خدمة الناس مقدَّمة على التفاخر بالعلم أو السيطرة على السوق.

فرفقًا بنا، في الدين كما في الاقتصاد.

فما كل وفرة خير، ولا كل علم هدى.

التوقيع الأكاديمي

د. إبراهيم محمد عبد الجليل

باحث في فلسفة القانون وعلم الاجتماع القانوني وتاريخ النظم القانونية القديمة

عضو في YouTube – Internet Archive – Academia.edu – ORCID

البريد الإلكتروني: profibrahim2022@gmail.com

ORCID iD: https://orcid.org/0009-0000-3089-6790

صفحتي الأكاديمية: https://independent.academia.edu/ibrahimProf

أبحاثي على أرشيف الإنترنت: https://archive.org/details/@prof_ibrahim586

قناتي على يوتيوب: https://www.youtube.com/@profibrahim9550

للتواصل00201011508408